عمّار بلخوجة عبر الأثير: حصة "تيارت زمان ومكان"

قراءة سوسيولوجية في طبونيميا المدينة

الدكتورة ثيافة الصديق، جامعة تيارت

"تيارت الزمان والمكان، عودة لأحداث وذكريات الزمان باستنطاق المكان عبر كل زمان"
تأتيكم مع الأستاذ عمّار بلخوجة"[1]

ديباجة

الأستاذ عمار بلخوجة الذي بدأ حياته المهنية والبحثية ككاتب صحفي ثم مؤرخاً عصامياً، لم يتوقف عند هذا الحد، بل كانت له إطلالات أثيرية عبر الإذاعة والتلفزيون في الذاكرة والتاريخ ولازالت مستمرة حتى اليوم، خصوصا تاريخ مدينة تيارت، وما وقع فيها من أحداث دموية أبان الثورة التحريرية. فمنذ افتتاح الإذاعة المحلية بـ**"تيارت"**، كانت له مواعد معها ولا يزال يشارك في حصص ثقافية وتاريخية ذات طابع علمي وأكاديمي على ما يربو تسعة عشر سنة ولازال، أي منذ افتتاحها سنة1998 هذا ما أكدته لنا الصحفية المكلّفة بتقديم حصة النادي الإذاعي، كما كانت لي معه حصص إذاعية، أذكُرُ واحدة منها وهي المثقف ودوره في خدمة المجتمع كان ذلك من ربيع 2013، لذا ارتأيت أن تكون مداخلتي حول ما قاله الأستاذ عمّار بلخوجة، وليس ما كتبه، ذلك أن معظم ما يقوله عاشه وعايشه، فكثير ما يستعمل ضمير"الأنا"، بلا فخر بل بكل تواضع فهو عايش الأحداث التي يكتب عنها، فالأجدر بنا أن نهتم بما قيل لا بما كُتبَ، فهي شهادة حية على ما عاشه وعايشه، ***"فمن رأى ليس كمن سمع"***.

إن لغة التخاطب أو اللغة المنطوقة والتي هي سمة الإذاعة هي الأصل وأن لغة التحرير أو اللغة المكتوبة فرع عليها "فاللغة أصوات مسموعة وملفوظة قبل أن تكون مكتوبة، ولقد اخترعت الكتابة على صورة اللفظ فأصبحت الرموز الخطية دالة على أصوات اللغة، وتابعة لها[2] ولما كانت اللغة المنطوقة هي الأصل الذي انبثقت عنه اللغة المكتوبة، هذا، كما نجد أن الإذاعة المسموعة ليست إلا مجموعة من الأصوات، أما الصحافة المكتوبة فمجموعة من الكلمات والمساحات البيضاء أو

الفراغات البيضاء التي تفصل بينها[3]، أضف إلى هذا أن جمهور القراء للكتب أو للصحافة المطبوعة على قدر معين من الثقافة ودرجة من الإلمام بالقراءة والكتابة، ولهذا فهو جمهور مختلف عن جمهور الراديو والتلفزيون الذي لا نضمن أن يكون قد وصل إلى مستوى ثقافي، أو حتى يجيد القراءة والكتابة[4]، لهذا نجد أن الجمهور في تعامله مع ما هو مكتوب (صحيفة أو كتاب) يختلف اختلافا كبيرا عن تعامله مع ما هو مرأي أو مسموع، ففي الحالة الأولى يأخذ هذا التعامل شكلا عقليا في أغلب الأحيان، بينما في حالة الصحافة الإذاعية يأخذ شكلا عاطفيا لأنها تصلهم عادة في إطار الحياة العائلية، وتقدم في شكل من الألفة والاسترخاء، ولكتها عناصر تهيؤ انفتاحا عاطفيا واندماجا بين المستقبلين والبرامج.

ولذلك نجد كثيراً من الباحثين والدّارسين لما يؤرّخون أو يتوقفون على قامة علمية كبيرة، أو جهابذة من جهابذة الفكر، يهتم أولئك الباحثون أو الدّارسون أو الكتّاب عامة بما كتبه، لا بمقاله، ولا غرابة في ذلك لأن أسمى ما توصل إليها الفكر الإنساني في مسيرته الحضارية، الكتابة، وبهذا الحدث الحضاري الكبير، أرّخ الإنسان لماضيه وبهذا الحدث إيضاً دخل التاريخ.

غير أن كثيراً ما قاله أولئك العلماء في ندوات علمية أو محاضرات أكاديمية أما طلبتهم، أو تدخلات أثيرية في الراديو أو التلفزيون- قد تكون أهم بكثير وفي غالب الأحيان مما كتبوه، أو كُتِبَ عنهم، بل أن هناك من العلماء في الجزائر ممن جمعت محاضرتهم في شكل كتب من طرف طلبتهم أمثال المفكر العالمي مالك بن نبي، والعلامة عبد الحميد بن باديس، وقد كان رد أحدهم مقنعا، لما سُئل عن عدم اشتغاله بالتأليف والكتابة، فكان جوابه:" إن صناعة الرجال وتأليف القلوب شغلنا عن تأليف الكتب"، وفي مقامنا هذا لا يعني أن الأستاذ **عمّار بلخوجة**، لم يؤلف، بل ألف ولا يزال في قمة عطاءه المعرفي وتأليف الكتب، وإلى غاية كتابة هذه الأسطر فهو لا يزال يجمع بين الكتابة الصحفية العلمية وتأليف الكتب[(5)]، إلا أن ما وددت التأكيد عليه وهو أن ما قاله عبر الأثير الإذاعي لا يقل أهمية عن ما كتبه. ونحن بدورنا نحاول في هذه الورقة البحثية القيام بقراءة سوسيولوجية في أحدى تدخلاته الإذاعية ضمن سلسلة حلقات **"تيارت زمان ومكان"**، فنحول ما كان مسموعا ومنطوقا إلى ما هو مكتوب فيصبح مقرؤا، ونفتح فيه نافذة أخرى،

وقداخترنا حصة منها والتي تحدث فيها عن "**المكان**"، **أي أمكنة وفضآت، أي** تسميات لشوارع وأحياء من مدينة **تيارت**، أي قراءة في طوبونيميا المدينة التيارتية.

أولاً– التعريف بالحصة الحصة:

الحصة الإذاعية " **تيارت مكان**" هي ضمن سلسلة حصص إذاعية تيارت زمان ومكان، سُجلت بإذاعة تيارت يوم 1أفريل2012 بمقر الإذاعة وبثت في نفس الأسبوع على أمواج إذاعة وقد تحصلت عليها في ملف إليكتروني يوم الأحد20 جانفي 2017 من مقر الإذاعة واستمعت إليها كاملة وسنضعها ملحق إليكتروني في قرص صلب للقاريْ في آخر المقال، وقمت بتحليل مضمونها من منظور تخصصي الأنثروبولجيا وعلم الاجتماع الحضري، وضمن الحصة كان هناك متدخل واحد وهو الأستاذ "فريد بن رمضان"من جامعة مستغانم، وهو كذلك باحث بمركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران، وقد قام بأبحاث كبرى وعديدة حول تسمية الأماكن(طوبونيمي) نشرت على مستوى مركز البحث في الأنثروبولوجيا بوهران، مع العلم أنه ابن مدينة "**تيارت**" التي عاش فيها وهذا ما يؤهله أكثر للعب دور الانثروبولوجي المعايش والمشارك بامتياز لمجتمع البحث، مادام الحديث عن أماكن من مدينة **تيارت**. ناهيك عن كونه مستشاراً لدى هيئة الأمم المتحدة.

أما **سير الحصة**، كالعادة بعد المقطع الموسيقي والترحيب بالاستاذ من طرف المزيعة وذكر عنوان الحصة" تيارت زمان ومكان"، ثم تبدأ المزيعة بمقولة في غاية البلاغة وفي نفس الوقت الحكمة:" ***"تيارت زمان مكان، عودة لأحداث وذكريات الزمان باستنطاق المكان عبر كل زمان" تأتيكم مع الأستاذ عمّار بلخوجة***"، وفي هذه المقولة دلالة عميقة على ما يتقاطع مع بحثنا في الزمان والمكان، أي طبونيميا الأمكنة، وشاعريتها، ثم يبدأ الأستاذ **عمّار بلخوجة** بالتحية ورد السلام والشكر للمذيعة على الاستضافة".... ربي أشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي– بالطبع كانت المداخلة باللغة العربية– رغم أن كتابات الباحث كلها بالفرنسية– ليست فصحى جيدة وهذه لغة الخطاب ألأعلامي ولو كانت من باحث متخصص، تتخللها كلمات أحيانا كثيرة بالعامية والفرنسية، وليس غريبا أن تكون هذه لغة الخطاب الإعلامي ولو من

باحث، ليس فيها تصنّع أو قواعد نحوية وغيرها مما تتطلبها الكتابة، فهي موجهة لكافة الجماهير على اختلاف توجهاتهم، وتباين مراتبهم العلمية.

ثانياً– عمّار بلخوجة عبر الأثير أو الخطاب الإذاعي:

يعرف المؤرخون وقراء الجرائد الأستاذ **بن خوجة** من خلال كتاباته حول الأحداث أو الأعلام والشخصيات التاريخية وذلك من منطلق تخصصهم المعرفي، والدافع لذلك، أنهم يجدوا فيه ضالتهم المعرفية، وخلافا لذلك – مما هو غير معروف حتى لأولئك المتخصصين والذين يعرفونه من خلال كتبه– إنه معروفاً أكثر من جمهور وقاعدة عريضة من المستمعين للإذاعة بمختلف توجهاتهم المعرفية وتباين درجاتهم العلمية، لكن ما يشترك فيه المستمعون والمقرءون له في مخيالهم الجماعي العام، إنه في نظرهم يروي أحداث زمان ماضية، ولاسيما تاريخ الثورة منه، وبالتالي هو يقع ضمن دائرة المؤرخ للأحداث لا غير، لكن حقيقة الأمر هو أكثر في نظرنا من ذلك، لأنه يؤرخ للمدينة ككل، فلا يكتفي بسرد الأحداث التي جرت على أرضيتها. المدينة هنا، بشواهدها المعمارية والعمرانية وآثر مبانيها القديمة والحديثة، بل حتى في هويتها من خلال تسمية أحيائها وشوارعها، وهنا يخرج عن دائرة المؤرخ إلى ما هو أوسع من ذلك وهو الأنثروبولوجي أو عالم الاجتماع، وذلك من خلال طوبونيمي الأسماء والتي تكلم عنها في إحدى حلقات الحصص الإذاعية **"تيارت زمان ومكان"** وبالضبط في حصة"**مكان**". تلك الحصة/المداخلة التي تحدث هو فيها عن مسميات مدينة تيارت، ونتحدث عنها نحن اليوم، أي عن" المكان"/الذاكرة"، والمقصود به هنا: " تاريخ مدينة تيارت"، التاريخ المبني لا التاريخ المحكي، ولا المروي عنه بالأحداث الماضية، أي تاريخ الشواهد المادية تاريخ "حاضرة تيارت" عمرانيا ومعمارياً، ونعني بها الآثار الباقية، "فهي أقوى دليل من الحضارة المكتوبة أو المأخوذة من بالفهم والاستنتاج، فعلماء التاريخ والآثار يعتمدون في دراستهم على مخلفات الأمم من التّحف المنقولة كالأدوات، وما إلى ذلك، ليتعرفوا بها على أحوالها وعاداتها وما كانت عليه في حياتها ومعيشتها اليومية، وعلى أساس ذلك يقيسون درجاتها في التقدم والتخلف، وإذا كان للتحف المنقولة هذا القدر من علماء التاريخ والحضارة وهو قدر عظيم، فليس من الريب أن العمائر والمباني لها في استنباط الحقائق الثابت التي لا تهاب ولا تحابى" [6]، ومن ثمة، أضحت العمارة (المباني) وما

تحمله من أسم، وما يماثلها من آثار قائمة، في مقدمة ما يحرص علماء تاريخ الحضارات والمدن على استنطاقه، والاستماع إليه، والوقوف على ما يخفي ويعلن عند تدوين تراث أجدادهم الأقدمين، وهذا كان من بين دوافع اختيار الجانب المحالي/ المديني العمراني، وبصفة أخص "الطوبونيمي" في تيارت موضوعا للدّراسة، والتي بثت ضمن حصص سلسلة أو حلقات "تيارت زمان ومكان".

وفي حقيقة الأمر إن للباحث مشاركات في برامج إذاعية أخرى مثل النادي الإذاعي ، إلا أن معظم مشاركاته في التاريخ والذاكرة كانت ضمن حصة سلسلة: **"تيارت زمان ومكان"**، يدور معظمها حول الذاكرة والتاريخ الجزائري ولاسيما المحلي(التيارتي) منه، حملت عنوان" تيارت زمان ومكان"، سيما وان غالبية تلك الحصص كانت تحكي ضمن تاريخ الثورة وقبله بقليل تاريخ الحركة الوطنية في تيارت،- وذلك من منطلق التخصص الذي رَغِب فيه عِصمة وليس أكاديميا- أي تاريخ النضال السياسي الجزائري والنضال الثوري والذي لم يكن بمعزل عن النضال الوطني وهذا لا يعني أن **عمار بلخوجة** له دراية بالتاريخ المحلي فقط. وهو بقوم بدور المؤرخ عن طريق الحكي والمشارك وشاهد عيان وكما سبق الذكر" ***من رأى ليس كمن سمع***" ، فقد شارك في عدة مظاهرات أبان الثورة وكما يقول هو بنفسه، بل أكثر ما يكرره دائما، ما كان يراه من مشاهد مروعة من قتل وجثث معلقة في ساحة الشهداء والتي كان يعرضها المستعمر أي الجنود الفرنسي لترويع الجزائريين، وكل من تسول له نفسه الإخلال بالأمن العام والاعتداء على الفرنسيين أو المشاركة في الثورة، وكل ذلك ملم يجد من الجزائريين إلا عزما وإصرار على المقاومة وإعلاء كلمة الحق، (والسيف أصدق أنباء من الكتب)، بل أن هنا اليراع أصدق أنباء من السيف، لأن مقاومة السلاح توقفت مع نهاية الثورة التحريرية، في حين أن مقاومة اليراع لازالت مستمرة ضد النسيان، ولن تتوقف مادام هناك رجال أوفياء لماضيهم ولوطنهم ولمجتمعهم حاضرا ومستقبلاً، عاشو وعايشو الحدث، وما لأستاذ عمار بلخوجة إلا أحد أعمدة هؤلاء. مقاومته بمؤلفاته ومحاضراته الأثيرية عبر الآاعة، وهو من ن الذين جعلوا من اليراع سلاح لمقاومتهم ولحفظ ذاكرة أمتهم، وربما تلك المشاهد المؤلمة هي التي تركته يكتب ولا شك أنها أثرت فيه نفسيا، بل تحولت تلك المشاهد التراجيدية إلى قوة خلاقة ومبدعة وربما مسؤولية علمية للأجيال اللاحقة، ولم ينهزم أو تجعل من شخصاً يتباكى فيها الأطلال، بل أستيقظ ذاكرته، وأطلق العنان ليراعه ليدّون ما عاش، ليبقى شاهد على ما كان، والدليل على ذلك

أنه في معظم مداخلاته الأثيرية حول تاريخ الثورة أو مدينة تيارات دائم يكرر ساحة الشهداء في **تيارت** في جل تدخلاته وبالطبع أنها ذاكرة قوية، ذلك أنها أقوى ذاكرة وهي ذاكرة المكان. ولكن قبل عرض ما تضمنته الحصة "**تيارتمكان**"، تحتم علينا الضرورة المنهجية والضوابط الأكاديمية عرض موجز عن الإذاعة والخطاب الإذاعي، ذلك إن للخطاب الإذاعي سطوة علمية لا تقل عن سطوة الكتب العلمية والأكاديمية.

1- **مفهوم الخطاب الإذاعي**:يطلق هذا المصطلح على المادة الكلامية التي تعرض لموضوع معين يوجهه أحد المتخصصين إلى جمهور المستمعين والمشاهدين من خلال الإذاعة الصوتية أو المرئية، ويعرف أحيانا بالحديث المباشر نظرا لأن المتحدث يلتزم فيه أسلوب السرد (Narration) ويتوجه بأفكاره وآرائه إلى المستمع مباشرة فيما يشبه المحادثة الشخصية[7]، وقد يكون هذا الحديث دينيا أو سياسيا، اقتصاديا أو اجتماعيا، علميا أو أدبيا فنيا، رياضيا، تاريخيا أو عسكريا...إلخ، وفي كل الحالات فإنه يكون بمثابة معلومات ومعان وأفكار، قد يتضمن كذلك مقترحات وآراء، ووجهات نظر حول الموضوع أو القضية المطروحة وقد شرح الباحث عبد الله العلايلي مفهوم الخطاب الإذاعي" على أنه إبلاغ الصوت الأسماع، الأداء بمخارج الحروف، وتكييف الصوت حسب المقامات،" وانطلاق الإشارة بالمعنى...قالوا: هو جيد الإلقاء، حسن الإفضاء، أو بصيغة أخرى هو: فن النطق بالكلام على صورة توضح ألفاظه ومعانيه"[8] وعلى هذا يمكن القول أن الخطاب الإذاعي يرد في نوعين من أساليب الاتصال هما:

الاتصال المباشر والاتصال غير المباشر.

ففي الاتصال المباشر أو المرتجل: يكون الإلقاء فوريا أو ملازما للحدق المنقول إذاعيا (نقل وقائع احتفالات رسمية، كالجلسات البرلمانية أو احتفالات خاصة، كالمباريات الرياضية أو المقابلات الشخصية...) ويحتفظ البث الإذاعي المباشر بطبيعته حتى ولو تم تسجيله أو أجري عليه مونتاج وأعيد إذاعته.

أما الاتصال غير المباشر أو المحضّر: فيقوم عادة على إعداد مسبق للإلقاء، أو الإخراج أو الأداء، ويعتمد هذا الشكل في البرامج الثقافية[9]؛ كما يتميز الإلقاء في الاتصال الإذاعي غير المباشر سواء أكان منفردا أو حواريا عند الإلقاء في الجمهور مباشرة ومجابهة، والحصص الإذاعية التي شارك فيها الأستاذ عمار بلخوجة ومنها حصص **"تيارت زمان ومكان"**، تنتمي إلى هذا النوع من الاتصال، وهذا عكس الاتصال المباشر الذي يعتمد على مواجهة الناس مباشرة عن طريق البيان باللسان الذي يعتبر السمة الكامنة في طبيعة الراديو والتلفاز؛ ومجاراة لهاتين الوسيلتين نجد أن الخطاب المسموع كذلك نوعان، فهناك الخطاب الصوتي (الإذاعة) والخطاب المرئي (التلفاز)[10].

2- سلطة الخطاب الإذاعي:

لقد تضاعفت دور وسائل الإعلام في عصرنا الحالي، وخصوصا بعد أن أصبحت أجهزة الاتصال الجماهيري المتعددة قادرة على إلغاء المسافات، وتخطي الحواجز والمسموعة والمرئية، كما استطاعت منذ ظهورها أن تكسب انتباه الجمهور في كل مكان وأيا كان مستواهم، وإن أهم ما يستوقف ويثير انتباه اللغويين والعلماء المحدثين هذا، والجميع يعلم أن للغة الإذاعة أو الخطاب الإعلامي وخصوصا المسموع منه قوة تأثيرية على النشء أفرادا وجماعات، وقدرة فائقة على التحكم في الجماهير من حيث أداؤهم اللغوي وتوجيههم، وذلك من خلال خطاباتها التي تتغلغل في النفوس وتؤثر مباشرة في العقل والوجدان.

وفي الواقع أن حاسة السمع كانت دائما ذات أهمية تفوق حاسة البصر وهذه حقيقى تؤكدها العديد من آيات الذكر الحكيم التي جاءت فيها كلمة السمع دائما مقدمة على البصر[11]، لقوله تعالى: **"يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**[12]، وقال أيضا: **"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا"**[13]، إلى غيرها من الآيات البينات التي تؤكد أهمية حاسة السمع على البصر، وكما يقول الشاعر:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ** ** والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وعلى هذا النحو يمكن بأن الصوت في هذه الوسيلة العمياء، "الراديو" يخلق مسرحا خياليا، وذلك أن تجربة الاستماع غير المرئية للإذاعة الصوتية يمكن أن تقدم من خلال الخيال صورا أكثر اتقانا وحيوية من تلك التي يمكن أن تقدمها الوسائل المرئية. وذلك لأن المنظر في الوسائل المرئية يعبر عن تصور مصمم لما في ذهن المؤلف، وبذلك يكون المنظر بمثابة "تجميد" لخيال المشاهد لأنه يفرض عليه شكلا أو صورة معينة، وهذا عكس ما يجري في حالة الاستماع، حيث تقوم الإذاعة الصوتية بتحرير الخيال وإطلاقه بلا قيود أو حدود[14].

3- البرامج الإذاعية: يقصد بها مختلف الحصص الإذاعية التي تتناول مواضيع سياسية ثقافية، اقتصادية اجتماعية تربوية، ترفيهية، سواء في شكل الإلقاء العادي للأخبار أو أشكال فنية إعلامية خاصة ومؤثرات صوتية مناسبة[15]، ويتوقف نجاح هذه البرامج في مراحلها المختلفة (البرمجة، الإعداد، الصياغة، الإلقاء، الإخراج) على عدة عوامل أهمها:

- البرمجة المناسبة من حيث الترتيب والتوقيت والحجم الساعي والتنويع
- حسن إلقاء المذيعي وتنشيطه للبرامج بحيوية وعفوية بعد التحضير الجيد لموضوعه
- الدقة في الإخراج وجعله مناسب لطبيعة البرنامج وموافقا لرغبة المستمع مع استخدام المؤثرات الصوتية المثيرة للاهتمام. هذا بالإضافة طبعا إلى حسن الإرسال والاستقبال الخاصين بالجانبين المادي والتقني[16].

4- خصائص الإذاعة: للإذاعة خصائص تميزها عن وسائل الإعلام الأخرى:

1- يستطيعالإرسالالإذاعيأنيتخطىالحدودوالموانعالطبيعية،ممايضمنانتشارا أوسع للرسالةالإذاعية،لذلكاعتبرتالإذاعةأسرعوسائللانشرفهيتتفوقبذلكعلى الصحافةوالتلفزيون، ومختلف وسائل النشر الأخرى، فهي تصل إلى ملايين إلى البشر في ذات اللحظة بغض النظر عن نوعية المتلقي ودرجة تعليمه وثقافته وسنه، كما أن الإذاعة لا تحتاج إلى جهد من المتلقي كما هو حادث في وثقافة وسنه.

2- تعتبر الأمية والفقر من العقبات الرئيسية التي تواجه وسائل الاتصال في الدول النامية، وقد أدى ذلك إلى تحجيم دور الصحافة والتلفزيون في القيام بدورهم كاملا، وفي نفس الوقت كانت هذه

العقبات من الأسباب التي جعلت الإذاعة المصدر الرئيسي للمعلومات والإرشادات للغالبية العظمى من السكان في كثير من بلدان العالم الثالث[17].

3- كما تتميز الإذاعة باستعمالها لمختلف طرق التعبير والتأثير على العاطفة، التي تتمثل في المؤثرات الصوتية والموسيقية، مما يعطي للمستمع شعورا بالمشاركة ويكون تأثيرها أقرب إلى التأثير الشخصي الذي يقترب من الاتصال وجها لوجه.

4- يتصف "**الراديو**" بخاصية غاية في الأهمية ولا تتوافر تلك الخاصية في وسائل الإعلام الأخرى وهي ذاتية الراديو، فجهاز "الراديو" جهاز شخصي كما أن الاتصال عن طريق الإذاعة لا يحتاج إلى وسيط خاص، وأن الرسالة الإذاعية تصل مباشرة من المذيع إلى المستمع مما مكن الراديو من خلق علاقة قوية متينة بينه وبين المستمع.

5- من خصائص الإذاعة والتي تنفرد بها عن باقي وسائل الاتصال خاصية التكرار، وذلك عن طريق تسجيل المواد الإذاعية وإعادة بثها أكثر من مرة وبأكثر من طريقة مما يجعل للإذاعة قوة فعالة توازي قوة الاتصال الشخصي.

6- يعتبر الراديو كأحد أهم مصادر الثقة التي يحترمها الناس ويقدرونها وخاصة في الدول النامية، مما لا شك فيه أن نجاح عملية الاتصال تتناسب طرديا مع درجة الثقة التي يتعامل بها الناس مع مصادرهم ومدى اقتناعهم بما يقولون، فالمصدر والثقة يؤثران تأثيرا كبيرا في فاعلية الرسالة الاتصالية[18].

ثالثاً– طوبونيميا المدينة: قراءة في إستراتيجية التسمية

إن البحث في نصية الشارع أو فضاء المدينة العربية عموما والمغاربية أو التيارتية على وجه الخصوص، سواء من منظور سيميائي، أو سوسيولوجي يبقى نادرا وإلى حد ما من منظور"طوبونيمي"، بقي بحثا نادرا، ولكن ليس منعدما، فلقد توقف البحث في المدينة عند نمط البناء وشكل العمارة، أو عند دراسة الممارسات الاجتماعية، دون أن يحاول الرموز والتسميات التي يتحرك فيها الناس إلا نادراً، لذلك فإن هذه الدراسة تنظر المكان/المجال في المدينة أو الشارع باعتباره فضاء مستثمر حسب منطق رمزي، أي أن الشارع أو الحي هو بمثابة نصّ موزع بطريقة تعوزها البراءة، لا إرادية إلى حد

ما. ومن هنا تكمن رمزيته، المجال(الحي، الشارع) شاهد على أغلب التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، كما يشهد أيضا على أغلب أحداث التاريخ المرتسمة على جدرانه[19].

إن الشارع ليس ذلك الممر الذي تطأه الأقدام يوميا، بل هو فضاء الحراك البشري في لحظة زمنية معينة، وهو المكتوب والمصور، وهو العَلاَّمَة الإرشادية واللافتة الإشهارية والألوان والأضواء، وهو الجدار بما فيه من هندسة معمارية توالت عليه الحضارات والأحداث وتقاطعت فيه، فخلفت آثارها فيه، وتركت شواهدها عليه. إنه صيغة مكثفة من صيغ تلخيص التاريخ في مدته من الممتدة[20].

إن التسمية في المدينة التيارتية، ليست نصا معلقا معزولا عن المجتمع وذاكرته، بل هي تخترق الخطاب الاجتماعي اليومي، وتنتشر في الفضاء الاجتماعي حسب منطق تراتبي تصنيفي، مما يدعوا إلى القول إن التسمية هي ظاهرة اجتماعية في وجه من وجوهها، وتمثل عنصر من عناصر ثقافة المجموعة الساكنة للمدينة والمتملكة لمجالها الحضري:إن" **ساحة الشهداء**"، وحي "**الامير عبد القادر**"،أو"**الريبيجو**"، أو"**سيتي روسو**"،"**درج سالم**"، هي أسماء تعرّف أنهج وشوارع وأحياء في مدينة تيارت، أصبحت بحكم التداول أو التكرار جزء من نسيج الخطاب اليومي، إلى درجة جعلت الأسماء تنزاح عن معانيها، فتنسى أو تفقد أحيانا دلالتها الاسمية الأصلية، وتبرز الدلالة الاجتماعية التي أنتجها الاستعمال الجماعي لها. وقد تنزاح التسمية الإدارية ومنها التسمية الوطنية(لشهيد، لزعيم أو تاريخ وطني)، ليحل محلها ما أتفق الناس حوله وتداوله، كأن تعوض تسمية شاع الأمير عبد القادر ب" **ريبيجو rue Bigeaue**"، وساحة الشهداء بساحة، "**كارنو**"، إذ هو تعويض باللغة الفرنسية، فهذا التعويض في كل الحالات ذا دلالة ثقافية واجتماعية، وهذا ما يؤلم الباحث **عمار بلخوجة**، فكان موضوع نقاش له عبر الأثير الإذاعي، وكان موضوع لدراستنا هذه.

1- الفضاءات الاستعمارية القديمة: من ساحة كارنو، إلى ساحة الشهداء

يتحدث عمّار بلخوجة عن الأمكنة، ويتابع السياق الدلالي لتسمياتها عبر حقبتين من الزمن، الحقبة الأستعمارية وحقبة الاستقلال في مدينة تيارت متألما وفي نفس الوقت متأسفا عن تسمية ساحة الشهداء والتي بقيت حتى اليوم تسمى بساحة "**كارنو**"، بالرغم على مرور أربع عقود من الاستقلال

فلم يُستدمج الاسم الرسمي بعد في الذاكرة الجماعية ويصبح لغة الخطاب اليومي لشاغلي الفضاء لما يتواعدون فيه ، أو يذكرونه، بقوله"..... .أخواني أخواتي السلام عليكم ورحمة الله ، ثم يواصل كلامه نواصل حديثنا عن تيارت زمان ومكان، أي الذاكرة ، واليوم نتحد عن تيارت/ المكان، نرجع لبعض أسماء الأماكن، نتأسف ونستغرب عن كثير عن بعض مسميات مجالات خصوصا تسميات الشوارع في مدينة تيارت بعد خمسين سنة من الاستقلال، لازالت تسمى بمسميات الاستعمار أي مسميات ما قبل 1962، رغم أن السلطات المحلية وضعت لهذه الأحياء لها أسماء رسمية أدارية بعد الاستقلال، وهذا شيء غريب ومستغرب وغير مقبول...." ثم يستسمح المستمعين لتأكيد كلامه بحادثة طريفة وقعت له وفيها نكتة وهي مؤلمة ".....هناك نكتة مؤلمة في حقيقة الأمر أحكيها لكم، تواعدت مع صديق لي آتي من العاصمة في صيف 2012 وتوعدنا على اللقاء في ساحة الشهداء، ولما وصل إلى ساحة الشهداء وجد شباب بمحل لبيع الجرائد والتبغ(كيوسك)، فسأل أحدهم، إين تقع ساحة الشهداء، فقال له الشاب لا توجد ساحة الشهداء هنا في مدينة تيارت ، بل ساحة ***كارنو***، ثم أعادها بالفرنسية، place de Carneau ، **كارنو**، هذا لو تعلمون هذا رجل دولة فرنسية، وقد سميت عليه الساحة، كان سفاحا ويقتل الجزائريين ويرميهم في تلك الساحة وخلال الثورة المسلحة،خلال الثورة المسلحة، كان خلالها الجيش الفرنسي يقتل المجاهدين والمناضلين ويرميهم في تلك لتهرهيب، كعرض درماتيكي وفرجوي مؤلم، أذكر منهم ***عدي معروف***، ***معاشي، بوسترة الجيلالي***، ***جهلان محمد*** ....كل هذه الجثث، من ما هو معلق معلق ومن هو مرمي في الساحة....." ولما التقى به الزائر قال له"...نتأسف كثيرا على الرغم من أن خمسين سنة من الاستقلال لازلنا لا نعرف مجالاتنا ونسمي تسميات مجلاتنا وفضآتنا المدينية ب بتسميات معمرين فرنسيين ارتكبوا جرائم في حقنا،" وبطبعه الأستاذ عمار بلخوجة هو كذلك يتأسف(يكررها مرارا في حديث) ليس على مجال ساحة الشهداء بل معظم مجلات وفضاءات مدينة تيارت ويواصل حديثه"....البعض منا وللأسف لما نقول له نلتقي في شارع الأمير عبد القادر، يقول أووو (متعجباً) أين في ***الريبيجو***، ***الريبيجو***. بيجو هذا من أكبر المجرمين الفرنسيين الذي تسلطوا على بلادنا الجزائر وارتكبوا جرائم في حق الجزائريين والإنسانية ككل، لكن تسمية الأمير عبد القادر، في الفترة الاستعمارية كان هناك فرع من الشبان الجزائريين ينتمون إلى حزب الزعيم الراحل فرحات

عباس، حزب UTMA الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، كان هناك مجموعة شبانية سمت نفسها" شبيبة الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري"، وكانت ناشطة أنذاك منهم: **مصطفى بلعربي**، عكاشة مختار، تركي عبد القادر رحمة الله عليهم، السي عبد القادر رحمة الله يخبرني 1956 وربما قبل، كنا لما نتواعد نقول نلتقي في شارع الريبيجو، يقول بعضهم لبعض يقولوا نلتقي في الريبيجوا يقولون "لا" نلتقي أو نتواعد اللقاء في شارع الأمير عبد القادر، قرروا تغيير الاسم لينكروا إسم الجنرال ***بيجو***" ويواصل الأستاذ عمار بلخوجة نفس الشيء يحدث له مع سائقي سيارة الأجرة:".أنا دائما في صراع مع الطاكسي أقول له أديني(خذني) لحي الإخوة **"قيطون"**، وهما أخوين شهيدين رحمة الله عليهما، يبقى يفكر الطاكسي يقول إين ***لاسيا*** CIA Algeriancompagnie immobilier ، وهناك شارع المؤدي لتلك العمارة يسمى شارع فلسطيني، نفس الشيء بالنسبة نقول خذني لحي طواهرية قويدر وهو شهيد وتضحيته كانت مؤلمة وقاسية وهو أصله من هذه المدينة من حي ***"لومبار"***، ومازلنا نقول سيتي ***"روسو"***، روسو هو كذلك مستعمر جدا في حديثه مع سائقي سيارة الأجرة ككل لما إذا لابد ا، يكون لنا رد فعل أجابي اتجاه هذه الفضائيات بعد الاستعمار ، أكراما لأولئك الشهداء الذين ضحوا من أجل هذا البلد". وبصفتنا باحثين في حقل الانثروبولوجيا والطوبونيميا، لا نجد تفسير لهذا الأمر سوى أن ذاكرتنا المكانية لازالت مستعمرة، فبرغم من تحرير الأرض لم نحقق بعد تحرير الذاكرة. وإذا لابد من دخول أسماء الشهداء في الذاكرة الشعبية بالرغم من أن تسميات تلك الشوارع كتبت في الجريدة الرسمية وعلى جدران تلك الشوارع وهو ما يؤكده الأستاذ فريد بن رمضان في تدخله ويلح عليه عمار بلخوجة ، فقد بقيت تلك المسميات حبر على ورق.

2- التسميات في الفضاءات(الأحياء) الجديدة:

هناك إبداعات يقول عمار،و يقصد بها التسميات، أي تسميات للمجالات الجديدة أو القديمة تطلق من طرف المجتمع التيارتي، وبالنسبة للفضاءات الجديدة هناك شيء غريب تستعمل كثيراً من طرف القابضين في حافلات النقل الحضري خصوصا، وحتى سائقي الحافلات....مثلاً: طريق **"الجفاف"**، أو طريق **"البيضاء"**، رغم، لهذين التجمعين أسم يعرف بهما، كذلك نجد أسم

"***باطيمات اليتامى***"، عمارات "اليتامى"، لأن هاتين العمارات كانتا بعيدتين عن التجمع العمراني للمدينة، أي وحيدتين كاليتامى التي لا أبوين لهما، هناك عمارة في طريق بوشقيف عمارة طويلة حجمها طويل مكون من عدة طوابق، أطلق عليها السكان"تيتانيك titanik"، ونفس الشيء نقول خذني مثلا الى "لافونيرL'avenir" وهي شركة بناء فرنسية، للعلم فإن هذا الحي، سبق وأن سلطة البلدية أعطته أسم **جهلان محمد** وهو شهيد من الأموات الذين علقوا في ساحة **كارنو** أي ساحة الشهداء مع معاشي وبن سترة الجيلالي، .." ثم يتساءل الباحث"...لماذا الاسم هذا أسم الشركة فقد قامت بالبناء وأكملت وتقاضت أجر، لما حتى اليوم نذكرها ونقدم لها خدمة وإشهار وشهرة، بالرغم من تأخر الانجاز وعيوبه، ونفس الشيء بالنسبة لحي **فولاني** و **لافونير** وهناك أحيا كثيرة.....، أطلع على الملحق الأليكتروني، هناك حي نسميه "**غانابيرGanabir**" هو تعبير للاسم**Galebir** ، **غاليبير** هذا كان رئيس مجلس شعبي بلدي لمدينة تيارت في العهد الاستعماري وكان يكسب أراضي كثيرة قام بتقسيمها وبيعها للسكان فسمي الحي عليه **غانابير**.....، وهناك أسماء تكسب أسماء جزائرية مثل، أسماء بعض المؤسسات الجزائرية العمومية مثلما نقول: مستشفى" بن فرحات"، وهو نسبة إلى بن فرحات الطاهر الذي كان لا عب كرة القدم، مثل مستشفى **بلزرق**،. ثم يتدخل الأستاذ فريد بن رمضان بصفته ضيف شرفي في الحصة، وبصفته كذلك مختص في تسميات الأماكن، ويعرض عليه الأستاذ عمار بلخوجة خلاصة بحثه في تسميته لأماكن، أن هناك تسميات جديدية للاماكن لا تضر لكن هناك تسميات تضر مثل **الريبيجوكارنو**.....الخ سيتي **روسو**، **غانابير**...الخ"، ومن خلال تكراره للفظ" يضر " مرات عديدة نستشف أنه يعيش آلاماً بداخله-بعد خمسين سنة من الأستقلال-، لا يقل عن ألآلام الجسدية التي تعرض لها من عايشو الأستعمار وتعرضوا للتعذيب، وإن ضجيج وضجرا في أذنيه لما يسمع اليوم لأماكن نعتز بها مروية بدم شهدائنا الأبرار، لاتعرف، إلا بالروبيجو، أو غانبير، روسو، .....وغيرها. يتصل الأستاذ فريد بن رمضان ويتدخل مباشرة، بعد تقديمه لتشكراته يقول:" ...بالنسبة للتسميات، أو نظام التسميات وبالخصوص تسميات مدينة تيارت القديمة، وليست تيارت الحالية، بل "**تيهرت**" الواقعة بنواحي "**تاقدمت**"، المدينة المؤسسة منذ العصر الروماني، ثم العصر الوسيط الإسلامية، تيارت كانت معروفة منذ ما يزيد عن عشرة قرون أو تزيد أحدى عشر

قـرن لـدى المـؤرخين، معروفـة بفضـآتها: "**بـاب الصـفاح**"،"**بـاب الأنـدلس**"، "**بـاب المطاحن**"،"**باب"الكنيسة"**، هذا يدل على أنها مدينة عريقة ولها أسامي عريقة، ثم لما حُطّمت المدينة من طرف الفاطميين، .....، أختفت وظهرت أسماء جديدة مع المستعمر هذه الأسماء الجديدة مثل **لونمبار** ،سيتي روسو ، هذه نتيجة عوامل تاريخية مثل TéRIgO**تيرقو** ترجع للكاتب فيكتور هيجو....، وهذا شي طبيعي لكل البلدان التي تأثرت بالاستعمار وهذا يدخل في أطـار الحضـارة أو التثـاقف، وحـى منـذ عهـد الرومـان كانـت تعـرف تيـارات باسـم*" تينهـرتين"،"تينقرسـيف"*، وفي العصر الوسيط سماهاه المسلمين*" بتيهـرت" مثـل "إبـن خلـدون"*، *و"إبن الصغير"*، أبو الفضة يقول*" تاهرت"...الخ*، التسمياتترجع لعوامل تاريخية ، أما الاستعمال، أي الاستعمال الشفوي، أي تسميات الأماكن*،"طوبونيميا"*، هناك استعمال رسمي، واستعمال شفوي، فبعد الاستقلال غيرت التسميات من الفرنسية إلى العربية بصفة قانونية رسمية وأخرجت في الجريدة الرسمية، وجاء قانون من بعد ذلك يغير التسميات من الفرنسية إلى العربية، واستبدلت أسماء الشوراع والأنهج أسماء الشهداء والتواريخ الوطنية..."ثم يتدخل الأستاذ **عمار بلخوجة** لماذا نمجد الأسماء القديمة"بعض الأسماء ، نجحت في التغيير مثل "**العربي بن مهيدي**" في وهران، ففي الضمير الجماعي والممارسات اليومية وهذا راجع إلى الاختيارات

يتدخل الأستاذ عمار بلخوجة نفس الشيء بالنسبة لحي"**درج أبا سالم**"، بقوله"أنا عرفته صغيرا(أي سالم) كانت لديه مخبزة في ذلك المكان، وبعد الاستقلال أعطيناه أسم عكاشة مختار لكن لم يستدمج ذلك في الذاكرة الجماعية فبقي الاسم القديم درج "**أباسالم**" ولم يستطيع أن يعرفونه الناس بدون هذا الاسم، وبالتالي ليس التسميات الاستعمارية هي المسيطرة وإنما حتى مسميات لشخصيات جزائري وعليه الناس وتدولونه في خطابهم اليومي....." وبهذاأختتمت الحصة.

استنتاج: إن بهذه الأسماء من خلال كلام **عمار بلخوجة** نستنتج طمس وتسطيح للذاكرة وللهوية والتاريخ، وهي مسألة مهمة يفترض التنبه إلى ما فيها من طمس وتسطيح للذاكرة، لأن هذه التسميات تستبطن كثافة وعمقا تاريخيين، وفي استعمالات التسمية معان ودلالات، وليس هناك مجالا للأعتباط، وفي مضمونها تاريخ ومنطق وطرافة عقلية، ولكن أيضا"رؤية للعالم"، فالتسمية رهانا

كما يقول **بورديو**، وأن للمجال سلطة وذاكرة كما يؤكد ذلك **غاستون باشلار** في شاعريته للفضاء، فالمجال ليس معطى جامدأ بل فيه روح الجماعة التي تمتلكه وتطأه يوميأ بأقدامها، فالشارع نص والمدينة كتاب مفتوح الكل يحاول قرآءته حسب لغته الخاصة عبر سوقا لغويا، ولا يتأتى ذلك إلا بالبحث في مجال السيميولوجيا الاجتماعية والتي بدورها قادرة على تقديم رؤية جديدة لتسميات الشوارع والأنهج في المدينة، مفادها أن هذا المجال الجغرافي الذي نتحرك فيه يوميا يكون نصا للقراء' أي للفهم والتفسير، وهي بذلك تقدم إضافة منهجية مهمة في دراسة ثقافة الحياة اليومية، وهي إمكانية قراءة ما لا يقرأ عادة داخل سياق نصي، ويبقى لكل مجتهد مصاب.

هوامش الدراسة:

1- كلمة افتتاحية الحصة للمذيعة.

2- فطومة سوسي، مقارنة تحليلية بين لغة التحرير ولغة التخاطب بالفصحى، رسالة ماجيستير غير منشورة، جامعة الجزائر، قسم العلوم اللسانية والصوتية، 1998، ص: 39.

3- شلبي كرم، الخبر الإذاعي- فنونه وخصائصه في الراديو والتلفزيون، بيروت، لبنان، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، 2008: ص 97. نقلاً عن كساس صافية، لغة الخطاب الإذاعي الصوتي والمرئي وتأثيرها على المجتمع، مجلة مواقف للدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، منشورات جامعة معسكر العدد السادس، ديسمبر2011، ص85.

4- نفسه، ص 93.

5- بيعت آخر أصدارته العلمية في معرض الكتاب الدولي بالجزائر العاصمة في أكتوبر2016، ويوقع عنها بنفسه ، إي البيع بالإهداء.

6- شتوان محمد، حنة حنان، فراجي يمينة، العمارة الإسلامية في قرطبة الأموية(138هـ-392هـ/756م-1002م) مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في التاريخ، جامعة إبن خلدون- تيارت،20102011، ص: ب.

7- كساس صافية، المرجع السابق، ص85.

8- فاروق، س. 1999، ص: 11. نقلا عن المرجع السابق،ص85.

9- نفسه، ص: 86.

10- نفس، ص86.

11- كساس صافية، المرجع السابق، ص90.

12- سورة البقرة، الآية: 20.

13- سورة الإنسان، الآية: 2.

14- بلمداني بختة،، دور الإذاعة في نشر الوعي الثقافي عند المرأة دراسة ميدانية بمدينة تيارت،، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في علم الاجتماع الاتصال،2012-2013، جامعة إبن خلدون- تيارت، ص28، نقلاً عن أحدادن زهير، مدخل

لعلوم الأعلام والاتصال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2007، ص73، نقلاً عن بلمداني بختة،، دور الإذاعة في نشر الوعي الثقافي عند المرأة دراسة ميدانية بمدينة تيارت،، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في علم الاجتماع الاتصال،2012-2013، جامعة إبن خلدون- تيارت، ص28.

15- المرجع نفسه، ص:141.

16- عاطف عدلي البعد ونهى عاطف العيد، مدخل إلى الاتصال، دار الفكر العربي، القاهرة، 2010، ص:167.

17- وخاصة الذين لا يقرؤون أو يكتبون وهم يمثلون نسبة كبيرة من سكان العالم الثالث، وقد أكدت كثير من الدراسات الإعلامية أن الراديو يعتبر المصدر الوحيد المتاح للإعلام والتعليم وربط سكان العالم الثالث بالعالم الخارجي، ففي دراسة قام بها "دوبير جنزي" على خمس دول افريقية أوضحت هذه الدراية أن 8.5% من الأشخاص الذين استجوبوا قد أكدوا أنهم يأخذون أخبارهم من الإذاعة. للمزيد من التعرف على خصائص الإذاعة، أنظر بلمداني بختة ، المرجع السابق، ص29-ص30.

18- قد ارتبطت الإذاعة في أذهان العامة في المجتمعات النامية بأنها مصدر الثقة ومن ثم زادت قدرتها على الإقناع وقابليتها للتصديق ويرجع ذلك إلى نظرة المستمعين للإذاعة في الدول النامية على أنها لسان حال الدولة الناطقة باسمها ومن هنا ارتبطت هيبتها بهيبة الدولة ذاته

19-بوعزيزي، محسن، السيميولوجيا الأجتماعية، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت ،لبنان، 2010، ص145.

20- نفسه، ونفس الصفحة، 145.